

عبد الله بن سبأ

للدكتور جواد علي

— { —

منه رشداً . فحسبه ، فكان لا يستطيع أن يخرج منها ^(١) وقد كان « حكيم بن جبلة » من النافقين والمشاغبين على الحكومة ، وكان على رأس الجماعة التي ذهبت إلى المدينة واشتركت في الفتنة المؤسفة التي أدت إلى استشهاده الخليفة ، وكان قد أظهر أنه يريد الحج ، وكان في الواقع على اتفاق مع سائر المشاغبين وعلى اتصال بحكم بمشاغبي الكوفة وأهل مصر ^(٢) .

ولست أزعّم لك أن نزول عبد الله بن سبأ في دار هذا الامير المشاغب كان حقاً ، ولست أزعّم لك أيضاً أن ذلك كان باطلاً ؛ ولكنني لا أبيع لك سرّاً أن قلت لك بأنني غير مطمئن إلى هذا الحديث الذي يرويه « يزيد الفقعسي » ولا إلى أكثر أحاديث هذا الراوية . لقد كان هوى « ابن جبلة » وجماعته من أهل البصرة مع « طلحة » فلم اختار ابن سبأ النزول على هذا الرجل من بين سائر رجال البصرة . وقد كان هواه مع علي . وقد كان في البصرة أناس يميلون إلى علي أيضاً ، والذي أنزل هذا الرجل على « حكيم بن جبلة » في نظري هو « يزيد » نفسه صاحب هذا الحديث لغرض سينجلي لك فيما بعد .

لم يتحدث الطبري عن نشاط عبد الله بن سبأ في البصرة ولا عن الفتنة التي أثارها في جنوب العراق . وكل ما قاله أن الوالي بعد ما سمع بخبر هذا الذي « الذي رغب في الإسلام ورغب في جوار ابن عامر » قال له « أخرج عني ، فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فاستقر بمصر ^(٣) .

ولم يتحدث الطبري ولا غيره عن نشاط هذا الذي في الكوفة . والظاهر من كلامه أن إقامته بها كانت قصيرة ، وأنه لم يحصل على النتائج التي كان يريدّها من هذا البلد ، فسافر إلى الشام . ولا ندرى بالطبع متى وصل الشام ، والذي نستطيع أن نقوله أنه بلغ مقر « معاوية بن أبي سفيان » بعد خروجه من الكوفة ، وأن ذلك كان بعد سنة ٣٢ - ٣٣ للهجرة .

ويدعي الطبري استناداً على أقوال « يزيد الفقعسي » أيضاً أنه

رأيت أن يحىء عبد الله بن سبأ إلى البصرة ونزوله على بني عبد القيس إنما كان على زعم « يزيد الفقعسي » في السنة الثالثة من حكم عبد الله بن عامر الذي ولي إمارة البصرة في عام ٢٩ للهجرة . أي في سنة ٣٢ - ٣٣ للهجرة . وإنه نزل على حكيم ابن جبلة ، وزعم صاحب هذا الحديث الذي دونه الطبري أنه ، أي حكيم بن جبلة كان من أشرار الناس ومن مشاهير قطاع الطرق وأنه كان يذهب إلى أرض فارس « فيمير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب من يشاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان بن عفان فكتب إلى عبد الله بن عامر أن احبسه ؛ ومن كان مثله ، فلا يخرج من البصرة حتى تأنسا

بمقدار فهمها لكتفه واستصفائها لمربرته ؟

على أن القدرة على التعمص لا تكفي في اكتسابها الرغبة والإرادة والمحاولة ، وإنما هي في أغلب ما تكون استجابات نفسية تستبد بما بين أحناء العلوق .

وهذه القدرة على التعمص لا تسلس بالمظاهر ، ولا تتأني بضروب التكلف والصنعة ، فلا بد أن تستند إلى مؤثرات طبيعية وتأثرات باطنية .

وحسبنا مثلاً لذلك شخصية « التميمي » ، فقد تماقّب على محاولة تعمصها ألوف من سدة المايدي وعمار الصوامع متخذين لها أقصى ما في الوسع من طواهر ورسوم ، يسبقون السوح ويرددون الأناشيد ويرتلون الصلوات ، ولكن القليلين من هؤلاء جميعاً هم الذين استطاعوا أن يتعمصوا شخصية « التميمي » على حقيقتها ، فوسموا نميرهم عن هذه الشخصية بميسم الخلود . وهذه أناشيد « أختانون » التي ينادي بهاربه ما تزال تقذف فيها حرارة الإيمان ، لأنها وحى قوى لتميم صادق الإحساس ، صادق الأداء .

محمود نيمور

(١) الطبري ج ٥ ص ٩٠

(٢) شرح نهج البلاغة لمز الدين أبي حامد عبد المجيد بن هبة الله الدائلي الشهير بابن أبي المسديد ج ١ ص ١٦٢ طبعة دار الكتب العربية الكبرى .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٩٠

أقام بها إلى أن اختاره الله إلى جواره في سنة اثنتين وثلاثين للهجرة أي قبل مجيء « ابن سبأ » إلى البصرة (١) . ومعنى هذا أن مجيء « عبد الله بن سبأ » إلى الشام كان بعد وفاة « أبي ذر » وبعد خروجه من الشام بما يزيد على سنتين .

ثم إن صاحبنا « أبو ذر » لم يكن من أولئك الرجال البسطاء السذج الذين كانوا يستجيبون لدعوة رجل لا يعرف من أمره شيئاً ، وقد رابت أنه سب « كعب الأحبار » وقد كان أعلى من هذا النكرة « ابن سبأ » درجة وعلماً ومقاماً ، وأقدم من أخيه في الدين إسلاماً ، حينما تمرض ابنته في حضرة الخليفة الشهيد ورجل يقول لكعب الأحبار « يا ابن اليهودية ما أنت وما ههنا والله اتسمعن مني أو لأدخل عليك » (٢) . أو « يا ابن اليهوديين اتملنا ديننا » (٣) . ثم لا يكتفي بذلك وهو في حضرة خليفة بل يرفع حججه فيشج ناصية كعب حتى يضطر الخليفة إلى استرضاء كعب والاعتذار منه . إن رجلاً مثل هذا لا يمكن أن يسلّم نفسه إلى مسلم حديث العهد بالإسلام لم يعرف من أمره غير المشاغبة والتجول بين الأقطار . ثم يقع بدعونه بمثل تلك السهولة التي لا تناسب مع ما عرف عنه من صلاحية أبي ذر وشدة تمسكه برأيه .

وقد روى كثير من المؤرخين قصة « أبي ذر » بشكل آخر قالوا إنه كان يلقو قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) وتعليقاته المروقة الواردة في حديث « يزيد الفهمي » أيام كان في المدينة ، وقيل ذهابه إلى الشام كان يقول ذلك لما شاهد من الثراء الذي أنهار على بني أمية وآل مروان ، فصاق أغنياء المدينة به ذرعاً فنفي إلى الشام لعلهم بأن « معاوية » رجل ذكي حليم يكفهم هذا الرجل وبلأيه . فلما يئس منه ووجد أنه أصبح خطراً على أهل الشام أعاده إلى المدينة ، ثم استقر بالربذة إلى أن وافاه الأجل في سنة اثنتين وثلاثين للهجرة (٤) . والمعروف عنه أنه كان زاهداً وكان ينفق ما يعييه من مال ويدعو إلى ذلك منذ أيام

« لا ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال يا أبا ذر ، ألا تمجّب إلى معاوية يقول : المال مال الله ؛ ألا إن كل شيء لله ؟ كأنه يريد أن يجمعه دون المسلمين ويحوّل اسم المسلمين » فتأثر أبو ذر من مقالته وذهب إلى معاوية فقال : « ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرجك الله يا أبا ذر ، أنسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال فلا تقله . قال فإني لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول مال المسلمين » (١) .

وخرج أبو ذر مغضباً من معاوية غير مقتنع بقوله ، وصار ينادي في أهل الشام ويقول : « يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء . بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فثار آل حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكوا الأغنياء ما يلقون من الناس ، فكتب معاوية إلى عثمان أن أبا ذر قد أعزل بي ، وقد كان من أمره كيت وكيت . فكتب إليه عثمان أن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينها ، فلم يبق إلا أن تشب فلا تنسكا القرح . وجهز أبا ذر إلى وابتعث معه دليلاً وزوده وارفق به وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنا نتمسك ما استمسكت . فبث بأبي ذر ومعه دليل » (٢)

وذهب « ابن سبأ » وهو بالشام إلى رجل آخر توسم فيه الانقياد والإذعان لمقاتته بسهولة ، وهذا الرجل هو « أبو الدرداء » وتحدث إليه بالحديث الذي ذكره لأبي ذر محاولاً إغراءه غير أن « أبا الدرداء » كان حذراً ذكياً فقال له « من أنت ؟ أظنك والله يهودياً » فأنى عبادة بن الصامت وأظهر له نفس المقالة « فتملق به فأنى به معاوية فقال : هذا والله الذي بمت عليك أبا ذر » (٣)

فيظهر من حديث « يزيد الفهمي » الذي حكاه الطبري عن طريق « سيف » أن نداء « أبي ذر » هذا وتحريكه الفقراء على الأغنياء إنما كان بتحريض « ابن سبأ » والحديث كله كما قلت في حاجة إلى تمحيص . فقد غادر « أبو ذر » الشام في عام ٣٠ للهجرة ، وترك « المدينة » في نفس هذه السنة إلى الربذة حيث

(١) الطبري - ٥ - ص ٨٠

(٢) الطبري - ٥ - ص ٦٧

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد - ٢ - ص ٢٤٠

(٤) الطبري - ٥ - ص ٦٧ . وابن الأثير وكتب التاريخ الأخرى

(١) الطبري - ٥ - ص ٦٦ ، ابن الأثير - ٣ - ص ٤٧

(٢) الطبري - ٥ - ص ٦٦ . راجع عن علاقة عثمان بأبي ذر شرح

نهج البلاغة لابن أبي الحديد - ١ - ص ٢٤٠ فابعد

(٣) الطبري - ٥ - ص ٦٦

الصحرَاء ، وقد كانت معصرة فعمرت فيها أجناس وأنواع من البشر ، فلا عجب إن رأينا فيها ذلك الخليط العجيب وذلك الانقلاب السريع .

ولم يذكر أحد من الرواة غير « يزيد الفقمسي » هذه المقالة على أنها كانت من صنع « ابن سبأ » في مصر . وحديث « عبد الله بن سبأ » في مصر هو من روايات هذا الراوية ليس غير . أما أصحاب الأخبار الذين تحدثوا عن « عبد الله بن سبأ » مثل « الشعبي » وأمثاله فقد وضعوه في العراق وجعلوا مكانه الكوفة ونقاه « ساباط المدائن » ولم يبعدوه إلى أكثر من ذلك كالذي فعله « يزيد » .

مبارك علي

(الكلام صلة)

مَطْبَعَةُ الرَّسَائِلِ

تقدم إلى عشاق الأدب

للاستاذ أحمد حسن الزيات

١ - وحي الرسالة
في مجلدين

ثمان كل مجلد ٤٠ قرشاً

٢ - في أصول الأدب

ثمان ٢٥ قرشاً

٣ - دفاع عن البلاغة

ثمان ١٥ قرشاً

تطلب هذه الكتب من دار الرسالة
ومن المكتبات الشهيرة عدا أجرة البريد

الرسول . فقصه « عبد الله بن سبأ » من « أبي ذر » قصة موضوعة أمتد أن واضعها هو « يزيد » أو « سيف » ولم يؤيدها رواة آخرون مثل « زيد بن وهب » وغيرهم ممن ذكروا سبب نفي أبي ذر (١) .

ولم يتحدث « يزيد الفقمسي » صاحب أحاديث عبد الله بن سبأ عن نشاط هذا الذي في الشام وعن مدة إقامته في هذا البلد . والذي يفهم من أقواله أنه لم يتمكن من عمل أى شيء في « دمشق » وأن « معاوية » لم يقبض عليه ، وأنه غادر أرض « بنى أمية » إلى أرض أخرى هي « مصر » . ايزرع في ذلك البلد بذور الفتنة التي زرعتها في العراق

وفي « مصر » على ما يظهر من روايات الطبري لقي « ابن سبأ » نجاحاً كبيراً ، وترأس في هذا القطر الفتنة التي أدت إلى استشهاد الخليفة . ويظهر من أقوال « يزيد الفقمسي » أنه جاء وهو في مصر بمقالة جديدة تضمنت عدة آراء فيها « الرجعة » و « الوصية » و « الإمامة » ثم اختتم كل هذه المسائل الهامة « بالطمع على الأمراء » وبالمكاتبة مع الأمصار الأخرى في عيوب الولاة . وقد تمكن بأساليبه المعروفة من إهاجة الرأي العام ومن تهيم الأفطار فكان أن غادر وقد مصر يريد الحجاز ، وكان أن غادر وفد البصرة متظاهراً أنه يريد الحج ، وكان أن تألبت كل هذه الوفود على الخليفة ولم ترحل عن مدينة الرسول حتى قتل . وكان من أهم أبطال الفتنة بمصر « عبدالله بن السوداء » وخالد بن ملحجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر » .

وأما الذي يظهر من أقوال الرواة الآخرين فهو أن هذه المقالات المنسوبة إلى « ابن سبأ » إنما كان قد وضعها في العراق وأنه وضعها في مكان مناسب جداً لمثل هذه الآراء وهو « الكوفة » التي عرفت بميلها إلى علي وأولاده ، وباتقلاها على علي وأولاده في الوقت نفسه .

والواقع أن محيط الكوفة هو صورة صادقة للمحيط الوسط الذي كان بين الحصار وبين البدانة . وبين الإطاعة للأمراء وبين الميل إلى الفوضى ومعصية الأمراء والطمع على أصحاب الحل والمعقد . ولا غرابة في ذلك فقد كانت هذه البلدة على سيف

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٤٠